غزو الأمم

بقرارات الأمم

حدثنا ابن عربان قال:

«ما زلت في مجلس الكرام، افتقد الجلوس لأبي العيال يحدثني عما كانت تخبئه الليالي والأيام..

عن حكايا وقصص الاستثمار، يصول فيها ويجول ـ في الديار وخارج الديار ـ صاحبنا أبو الهول... وبرامجه في توظيف المال التي لم يسعفه فيها الحال في كل مجال... فآلت إلى ما آلت إليه: من ضياع للمال ورحيل للرجال...

ما عاد للمجلس، بعد أبي العيال وحكاياه المثيرة، تلك النكهة السامرة مع الوجوه الساهرة...

وازدادت الأحوال بعد رحيل أبي العيال اضطراباً
فما لبثت أن دارت بنا الأيام تحمل المزيد من العناء والهموم...
وضجت الأصقاع بما هو أشد هولاً من مآسي أبي الهول..، وأكبر أسىً من أرصدة تجمد أو مال يضيع...
فقد بتنا في إحدى الليالي على شبح غزو أغبر...
وصحونا على اجتياح مُدَبَّر...
استباح الديار فيه كل صغير وكبير... وشرخ الأمة شرخاً أصاب القلب والجذور...
فما عدنا نميز صاحباً من عدو..، ولا أخاً عقوقاً من صديق لدود يخلط الوعيد بالوعود أو ينشر الظلم باسم الأمان...

فأطبقنا صدورنا على هم الإنكار لكل الأفكار..، وأغلقنا القلوب على شغاف الحيرة من عبث الأقدار واليأس من مستقبل الأطفال...

ثم توالت بعدها الحداث والخطوب...!!
فبعد أن أفرغ الغزو من الأمة ظاهر الحمية..، وادعاءات الأمن والقوة...، وأماني الجد والتعاون...
وبعد أن تم ارتهان الأوطان بما دفع من تكاليف وأثمان لمزعوم الأمان...

إذا بنا أمام سلام نجر إليه كالأنعام..، تساق إليه ظهورنا بالسياط..، فلا نحيد عن الصراط..، أو نتنكب السلوك القويم...
صراط النظام العالمي العظيم..، وسلوك القانع بالأذى..، الراضي بذل التبعية..، المصر على التمسك بها.. والاستمرار تحت رحاها.. المتسابق لإرضاء السادة العظام من أصحاب النظام...
نظام لم نفهم منه إلا أننا مطية يركبها العظام ممن تقدم من سادة الأنام..
نقاد إليه من حلوقنا باللجام...
لجام قرارات القمم من مجمع الأمم...

قرارات تصدر صريحة سهلة النفاذ عندما يتعلق الأمر بركوب المطايا..
ثم هي مائعة، مطاطة، خجولة، مترددة عندما يتعلق الأمر بدرء المصاب عن مؤمن مقهور...
أو دفع العدوان عن حرائر بأغطية الصلاة تهاجر..
أو أطفال تقتل عوائلهم فيباعون بيع المتاع...

قرارات تقفل في سبيل نفاذها المنافذ، وتستخدم لإيقافها حقوق الاعتراض عندما تتعلق بشجب أو وقف عدوان يستوطن الديار..
أو عودة مبعدين عن أطفالهم وديارهم أبعدوا زوراً وبهتاناً...

ثم هي تبدو صارمة مخيفة، يتسابق أهل الدار في الحرص على تنفيذها قبل الغير والجوار..، عندما تتعلق بتهمة تلفق لصاحب كلمة حق تقال...
أو جريمة تزوق ضد الإفصاح عن رأي حر لم يعتد صاحبه الخضوع والإذلال...، أو التعبير عن إرادة تتجه نحو التخلص من ذل التبعية ومحاولة الاستقلال بالقرار...

توالت القرارات...

واستمرأ السادة العظام لعبة القمم في مجمع الأمم، تعيد عهد الاستعمار القديم باسم النظام العالمي الجديد...

تارة باسم حقوق الإنسان...!!
وأخرى تحت شعار إطعام الجائعين اللذين ماطلت القرارات إطعامهم حتى الموت...
وثالثة تحت ستار الحفاظ على النظام...

الهدف من القرارات واحد: التوسع والاستيطان، استنزاف الإنسان..، مصادرة المال والأوطان...

كل ذلك على حساب غفلة الغافلين..، وجهل الجاهلين والمجهلين...، وحرص الحريصين على جاه زائل..، وسلطان حائل..، ونعمة مرهونة بقرار يصدر بين الحين والحين..، عن قمة الأمم..، حسب أهواء ومصالح أصحاب النظام الرصين...

وأردف ابن عربان يقول:

«جلسنا نتابع الأخبار على الشاشات الملونة.. ونستزيد من الأقنية..، تبثها الأقمار المزينة.. لا ندري ما إذا كنا النظارة..، أم أننا الدمى والأنعام على مسرح الدنيا، يتفرج العالم، كل العالم، على مشاهد غفلتنا الغبية...
وفصول جهلنا الساذج..، ومظاهر عدم احترامنا لذواتنا الذي أفقدنا كل احترام...

يتفرج العالم..، كل العالم.. على معلقات الخصام..، وقصائد الفرقة والتناحر..، وأوسمة التسابق على إرضاء السادة..، مما أتقنا أداءه على مسرح الدنيا أيّما إتقان حتى غدونا فرجة الإنسان..!!

ننام على صدى أخبار المدافع..، تقصف منا كل المواقع..، شمالاً وجنوباً وفي كل البقاع..، حتى غدا ضربنا كل يوم من قبيل الأمر الواقع..

فإذا سكتت عنا المدافع إلى حين..، رحنا نضرب بعضنا البعض جادين مخلصين.. ونمارس من أشكال الضرب والقمع كل الفنون..
نصحو على صور الجياع والمهجرين في الشاشات تذيب المشاعر وتهز منا

الضمائر دونما حيلة أو وسيلة فكأنما جوعنا أمر معلوم وتهجيرنا قدر محتوم..!
أو كأنما سربت الأوامر ـ من السادة العظام ـ بأن الدفاع عن المؤمن المحاصر..، أو الجائع المقتول عمداً مع سبق الإصرار..، أو المهجر ظلماً دون إنذار..، ليس من اختصاصنا...

نسينا أننا عن فك المؤمن المحاصر مسؤولون..، وعلى إطعام الجائع في الجوار مأمورون..، وبنصرة المهجر المطرود ملزمون...، وأننا في استمرار جوع وحصار وتهجير ذوي القربى آثمون...

ثم لا يلبث أن يمر علينا الضحى بعد ذلك على قرار جديد بمصادرة مال جديد غير مال أبي الهول العتيد..
فما أكثر ما لدينا من مال مشرد..، يدعو كل عابر سبيل أن يغرف ويحصد..!!

ونمسي بعدها على غزو جديد باسم إطعام من قتل من الجياع..، ما أسرع ما يصدر به القرار وتصفق له الأصقاع..، وتشيد بإنسانيته الألسن..، ويتفنن في تصوير رحمته المعلق والمذيع في الرائي والمذياع..

باعاً بعد باع..، وبقعة وراء بقعة تجتزأ الأوطان وتتسرب..، يُهَجَّر من يُهَجَّر ويُغَرَّبُ من يُغرّبْ..، يُباع من يُباع ويُقتل من يُقتل..، يُغْتَصبُ من يُغتصب ويُعذّب من يُعذب...!!

وأردف ابن عربان يقول:

«وما زالت تدور بنا الأيام..، من ظلمة لظلام في واقع ميؤوس..، ومستقبل تعيس..، تتفنن في الحديث عنهما الصحف والأقلام...

واقع لا نجيد فيه إلا الفرجة على قتل الأبرياء، بيع الأطفال ومستقبل الأطفال، وانتهاك الحرائر ولا نحسن فيه إلا الخطب الثائرة العاصفة على المنابر...
فلم يعد العالم يسمع منا كلمة حق تقال...
أو وقفة لاحترام النفس أو وحدة الصف توجب لنا الاحترام..

لم يعد لنا إلا السباق فرادى على إرضاء السادة والتزاحم على الفتات..، وإظهار أقصى حدود القدرة والجلد على تحمل السياط واللطمات...، والتهليل للغزوات...

ثم ضرب الكف بالكف لدى الحديث عن مستقبل الأطفال في الأوطان...

مستقبل لم يعد لنا فيه إلا رجاء اللطف من رب العالمين وطلب الرحمة والأمان...

توقف ابن عربان برهة عن الحديث ليستريح ثم شرع يقول:

«وفي غمرة تردي الأوضاع..، وتوالي المآسي وفي دوامة الإحباط والانتكاس...، لم أدر إلا والبريد يحمل لي خطاباً في قرطاس..، رث الهيئة ممزق الأركان من طول إهمال وتكديس...

فكأنما خاض الخطاب وحده مظاهرة تعاطف مع حال الديار التعيس...، أو أضرب حيناً عن الوصول استنكاراً لما أصاب النفوس من إحباط وتيئيس...!

عنوان المرسل شبه مطموس..، وعنواني فيه لم يبق منه إلا الرموز..، تشير إلى صندوق البريد في البلد السعيد....

فتحت.. فإذا خطاب من أبي العيال أرفق معه صوراً له وللأطفال...، تبدو خلفهم شامخة مهيبة قمم الجبال في الشمال...

تأملت الصور على عجل..، فصافحتني وجوه تعطرت بسمرة الشمس وأشرقت بعطر الشباب...

حتى أبا العيال، وكان في إحدى الصور واقفاً يعانق بعض الأزهار، بدا شاباً وكأنه قد عاد في عمره للعشرين.. بعد أن كان عهدي به ـ قبل عامين شاحباً من وطأة السنين مطأطئاً من تعاقب الهموم...

وأردف ابن عربان يقول:

«ولم أشأ أن أفتح الخطاب وأنا على الباب...، فخطاب من أبي العيال طويل.. وصل بعد غياب يحتاج إلى جلسة هادئة في ركن ظليل.